من آيات الله

فى خلقه

بنظرة تدبر وتفكر فى خلق الله سبحانه وما اشتمل عليه من عظمة، وجلال، وما قام عليه من أسس وقوانين، هى من الدقة، والتنسيق، والتنظيم، حيث عجز المفكرون عن إدراك كنهها، ووقفوا مشدوهين أمام كمالها.

بهذه النظرة المجردة من الهوى والتضليل، ندرك أن الله سبحانه، هو الذى أعطى كل شئ خَلْقَهُ، ودبر فى الكون كل ذرة. وأنه وحده الذى يستحق أن تعنو له الْجِبَاهُ وتخر له الرؤس ساجدة، وينقاد له الخلق معظمين مكبرين.

قال تعالى فى سورة البقرة: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقال تعالى فى سورة آل عمران: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ**﴾ [آل عمران: ١٩٠].

ولكن قصة البشرية مع خالقها وبارئها، فيها مساوئ كثيرة، زلت فيها أقدام البشر، وضلت عقولهم، وأضلوا من تابعهم..

وكثيراً ما يلغى الناس عقولهم، ويرضون بإهدار كرامتهم، فيقلدون تقليداً أعمى أشخاصاً أعمتهم المادة، عن رؤية جمال ما فى الحياة..

وهذان مشهدان صورهما كتاب الله لنا لندرك أن الذين حاولوا إنكار الله سبحانه وتعالى لم يكن لهم بذلك أدنى برهان.

اسمع قول الله تعالى فى مجادلة أحد الملوك لإبراهيم عليه السلام: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ [البقرة: ٢٥٨].

ثم اسمع ما جرى من مناقشة بين فرعون وموسى عليه السلام فى سورة الشعراء: ﴿**قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ [الشعراء: ٢٣-٢٨].

وهناك كثير من الآيات التى تدعو إلى التفكر والنظر فى السموات والأرض وما خلق الله فيهما، ليصل الإنسان إلى الإيمان بالله، فيرتقى إلى السمو والكمال.

والإنسان بدون إيمان بالله لا قيمة له ولا اعتبار. قال تعالى فى سورة الأعراف: ﴿**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**﴾ [الأعراف: ١٧٩].

فما أسقط المخلوق صلته بخالقه إلا أسقط خالقه صِلَتَه به فى الأولى والآخرة، فيجب بالضرورة أن يغدو الإنسان لحق الله تابعاً، وإلا كان أمره فرطاً.

ولقد جاءت آيات القرآن الكريم توجه الناس إلى النظر، والتفكر، والتدبر، وتستنهض العقول، وتوقظ الحواس، وتنبه المشاعر. وذلك بالتعقيب على بيان الآيات الكونية والتشريعية بمثل قوله تعالى: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ [الرعد: ٤]. وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [الرعد: ٣]. وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى**﴾ [طه: ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يونس:٦٧]. وقوله تعالى:﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة:٢٢١]. إلى غير ذلك من آيات جاءت تضع أصول المنهج الإسلامى فى تحرير العقل والفكر.

وأول دعائم المنهج الإسلامى فى تحرير العقل والفكر: تحرير الإنسان من أغلال الحجر العقلى وسيطرة التبعية العمياء، وتربيته تربية إسلامية تقوم على الفكر الصحيح ليكمل بذلك العقل، ويستقيم التفكير. لأن كمال العقل، واستقامة التفكير أساس فى صحة العقيدة وكمال التدين، ومعرفة الحق الذى يجب أن يتبع.

والدعامة الثانية فى المنهج الإسلامى: تحرير الإنسان من أصفاد الجهل وظلمته، لأن الجهل يقتل مواهب الفكر والنظر، ويطفئ نور القلوب، ويعمى البصائر، ويميت عناصر الحياة فى الأفراد، والجماعات، والأمم، ويفسد على الناس مناهج الاستقامة والسلوك الحسن.

والدعامة الثالثة فى المنهج الإسلامى: تحرير الإنسان من طاعة الأهواء، والانقياد الأعمى لمغرياتها. لأن طاعة الأهواء من أقوى عوامل انحراف الإنسان فى سلوكه، والتوائه فى نظره وتفكيره. وهؤلاء الذين يطيعون الأهواء، لا يستقيم لهم رأى ولا تعتدل لديهم موازين، ولا يخضعون لحق ليس فى جانبهم.

وآيات الله جاءت للعقل الإنسانى بكل ما احتواه. فالقرآن يخاطب العقل لوازع، والعقل المدرك، والعقل الحكيم، والعقل الرشيد، لأن الكتاب الذى ميز الإنسان بخاصة التكليف هو الكتاب الذى امتلأ بخطاب العقل بكل ملكاته، وكل وظيفة عرفها له العقلاء والمتعقلون، أفلا يعقلون؟ أفلا يتفكرون؟ أفلا يبصرون؟ أفلا يتدبرون؟ إن هذا العقل بكل عمل من أعماله التى يناط بها التكليف حُجَّة على المكلفين فيما يُعْنيهم من أمر الأرض والسماء، ومن أمر أنفسهم، ومن أمر خالقهم، وخالق الأرض والسماء..

والعقل الذى يخاطبه الإسلام، هو العقل الذى يعصم الضمير، ويدرك الحقائق، ويميز بين الأمور، ويوازن بين الأضداد، ويتبصر، ويتدبر، ويحسن الادكار.

ذكر ابن كثير عن أبى حنيفة أن بعض الزنادقة سألوه عن وجود البارى تعالى فقال لهم: دعونى، فإنى أفكر فى أمر.. ذكروا لى أن سفينة فى البحر مثقلة بأحمالها فيها أنواع من المتاجر.. وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها. وهى مع ذلك تذهب وتجئ وتسير بنفسها، وتخترق الأمواج العظام حتى تتخلص منها وتسير حيث شاءت من غير أن يسوقها أحد..

فقالوا: هذا شئ لا يقوله عاقل.. فقال: ويحكم هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوى والسفلى، وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة، أليس لها صانع؟ فبهت القوم، ورجعوا إلى الحق، وأسلموا على يديه.

* * *

obeikandl.com